

الشيخ التنسي التلمساني: مؤرخ الدولة الزيانية {9هـ/15م}

د. محمد مهداوي

جامعة تلمسان

توطئة

قبل الخوض في صلب الموضوع ، لابد من توطئة نتوسل بها الدخول إلى معرفة هذه الشخصية المغمورة في عصرنا ، على الرغم من شهرتها في عصرها الزياني ، لما كان لها من إسهامات في مجالات الفكر والثقافة والدين. و لا بأس أن نبدأ بطرح السؤال الآتي :

ما الذي يجعل من العظيم عظيما، يستحق أن تدون سيرته وأن تدرس؟
و للإجابة عن السؤال نقول : إن العظماء يختلفون عن سائر الناس بالغايات والوسائل، فغاية الناس العاديين إسعاد أنفسهم ، وأسرهم وتربية أولادهم تربية صالحة، إلى جانب خدمة مجتمعاتهم بوظائفهم ومهنتهم، وهي غاية نبيلة ولكنها محدودة ، في الأسرة والمهنة. ووسيلتهم إلى ذلك العمل الجاد بأمانة وإخلاص، وهي وسيلة شريفة ما في ذلك شك. ولكن غاية العظماء، تتجاوز أنفسهم وأسرهم ووظائفهم، إلى مجتمعاتهم وإلى الإنسانية جمعاء، فتصبح غاية العظمى السياسية ، إعلاء شأن بلاده أو تحريرها من الاستعمار، و غايته العلمية، اختراع آلة مفيدة للإنسان، أو دواء يخفف عنه آلام المرض، وهكذا بالنسبة للغايات الأدبية والفنية وغيرها.

وقديما قال المتنبي:

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدر الكرام المكارمُ

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم¹

فالصغير يرى صغار الغايات كبيرة ، لا يستطيع القيام بها، والعظيم يرى كبار الغايات صغيرة على همته وعزمه، مهما كلفته من عناء وتعب. وقد يضعف الجسم أمام هذه الغايات، ولكن النفس تظل قوية لا تتوقف عن العمل.

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام²

ولا يستطيع كثير من الناس دفع ثمن العظمة الباهظ، الذي لا يشتري إلا بالجهد والدم والعرق، ولولا ذلك لأصبح الناس كلهم عظاما.

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال³

غايات العظماء ووسائلهم:

ينذر العظماء حياتهم لقضايا بلادهم، أو للعلم أو للأدب أو للفن، فيخدمون الإنسانية بمختلف الوسائل، الشريفة والنظيفة والخلاقة، ويثرون تراثها بمآثرهم وأعمالهم واختراعاتهم وأشعارهم، ورواياتهم ولوحاتهم وتمثيلهم. وهذا ما يميز العظماء عن الناس العاديين، ويجعلنا ننظر إليهم نظرة إجلال، وتقدير واحترام. فغايتهم إسعاد المجتمع كله، أو الإنسانية قاطبة؛ ووسيلتهم في ذلك البذل والعطاء، والتضحية بالنفس أحيانا، وبالمال أخرى، وبالجهد والوقت دوما، وهذا ما يجب أن نبرزه في حياة كل عظيم: غايته ووسائله التي تترجم إلى مآثره وإنجازاته.

ومن أجل العظماء: الشهداء الذين بذلوا دمائهم، رخيصة في سبيل أوطانهم، فقد كانت غاياتهم تحرير أوطانهم، وهي غاية وطنية نبيلة، ووسيلتهم الجود بالنفس، والشاعر العربي يقول:

"والجود بالنفس أقصى غاية الجود"

وهنا نتوقف قليلا لنطرح سؤالا آخر هو: لماذا ندرس سيرة العظماء؟

نحن ندرس سيرة العظماء لسببين: الأول هو ذكر مآثرهم في المجال الذي أبدعوا فيه، عرفانا بجميلهم على مجتمعهم أو على الإنسانية. والثاني هو توجيه الشباب للاقتداء بهم، وليس معنى ذلك أن يصبح الشاب نسخة عنهم، فلا يمكن أن يكون ثان لعمر بن الخطاب أو لعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، أو للأمير عبد القادر الجزائري، وابن باديس والإبراهيمي رحمهم الله جميعا، ولكننا نطلب الاقتداء بهم، في سلوكهم وأخلاقهم ومثابرتهم، لا في وسائلهم وأساليبهم، فلكل عصر مشاكله وأساليبه في مواجهتها. وعلى الإنسان أن يكون ابن عصره، فيفيد مجتمعه، ومن أراد أن يقلدهم دون النظر إلى فارق العصر، فقد ظلم نفسه، وظلم من اقتدى بهم أيضا، لأنه يحسب عليهم، وقد كانوا روادا في عصرهم، بينما يبقى هو مقلدا متحجرا، بعيدا عن عصره، يطبق أساليب زمنهم لا أساليب زمنه.

الموضوع:

من هو هذا الشيخ التنسي التلمساني ، الذي نريد أن نفض عنه غبار السنين ، ليتعرف اليه الناس؟ إنه الشيخ الامام محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي، مؤرخ الدولة الزيانية ، والمغرب الأوسط في عهدها ، و صاحب كتاب: "الطراز على ضبط الخراز"، وهو كتاب في ضبط القرآن الكريم، وهو العنوان المذكور في الصفحات الأخيرة ، من المصاحف المطبوعة بالمدينة المنورة. والكتاب وإن لم ينشر بعد، فإن المكتبة الوطنية الجزائرية ، تملك نسختين مخطوطتين منه ⁴.

مما لاشك فيه أن محمد التنسي قد احتل منزلة مرموقة بين معاصريه، في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي ، الذي برز فيه عدد لا بأس به من العلماء ، في المغرب الأوسط، وذلك على الرغم من الفتن، و تدهور الأحوال الاجتماعية في البلاد، وضعف الدولة الزيانية التي كانت تنخرها الاضطرابات الداخلية، الناجمة عن كثرة المطالبين بالعرش، وكذلك عن الحملات المتتالية عليها من الدولتين المجاورتين، الحفصية في تونس، والمرينية في فاس.

وإن اللافت للانتباه، فيما يتعلق بمنزلة التنسي، هو الألقاب والنعوت التي اطلقها عليه معاصروه. فسموه بالحافظ، وأصبحت الكلمة التي تدل على حفظه و إتقانه لعلوم الحديث النبوي الشريف ، مقرونة باسمه. فلم يدعى في كتب التراجم، إلا باسم الحافظ التنسي أو بالإمام. ومن المعروف أنه قل من لقب من العلماء بالحافظ، في العالم الإسلامي كله. وبالإضافة إلى النعوت التي كانت تسند إلى جل العلماء في العصور الفارطة، إذ كانوا يعتنون كل عالم ديني بالفقيه الجليل، والحجة، والمحقق، والخبر، الخ.. كما وصف التنسي بالأديب، والمؤرخ. وقد سماه أحد تلاميذه "بقية الحفاظ، وقدوة الأدباء"، وما هذا إلا لاهتمامه الكبير بالأدب شعرا ونثرا، ولاهتمامه بالتاريخ. وإذا كان معاصروه والمترجمون له، قد انتبهوا لقوة حافظته، ولسعة اطلاعه، ولتبحره في علم الحديث النبوي الشريف، وفي الفقه ، فإننا نلاحظ أنهم حرصوا كل الحرص، على إظهار ميله إلى التاريخ والأدب، مع أن الاهتمام بالمادتين كما هو معروف، كان قليلا في ذلك العصر الذي تغلبت فيه العلوم الدينية والتصوف على الحياة العلمية ، فوصف أحمد الونشريسي صاحب "المعيار" التنسي "بالفقيه، الحافظ، التاريخي، والأديب الشاعر". والاسم الكامل للكتاب هو: "المعيار المغرب، والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب"⁵.

ومما يستوقف نظرنا، أننا نجهل الكثير عن حياة هذا العالم الأديب، الذي بلغ ما بلغ من الشهرة بين معاصريه. فمن الراجح أنه ولد في مدينة تنس - وقلنا من الراجح - لأنه لا تتوفر لدينا وثائق تقطع بذلك. واعتمدنا لإثبات مكان ولادته على اسمه أولا، وإن كان هذا لا يكفي دائما، وثانيا على نص لأحمد المقرئ

يدل على أن التنسي لم يولد في تلمسان، التي قضى بها شطرا كبيرا من حياته فسمي بالتلمساني. وقد قال عنه المقرئ: "الإمام الحافظ عبد الله التنسي نزيل تلمسان". ولاحظوا كيف سماه المقرئ. قال: "الإمام الحافظ"⁶.

وإذا كنا نعرف تاريخ وفاته وهي سنة 899 هجرية الموافقة لسنة 1494م، فإننا لا نعلم إلا اليسير عن مجرى حياته. إننا نجعل سنه يوم توفي، ومكان وفاته، كما أننا نجعل أين ضريحه. ومما لا شك فيه، أنه اشتغل بالتعليم، لكثرة التلاميذ الذين عدوه من شيوخهم. وقد قال أحدهم:

"لازمت مجلس الفقيه العالم الشهير، سيدي التنسي عشرة أعوام، وحضرت إقرائه تفسيراً، وحديثاً، وفقها وعربية، وغيرها"⁷.

وفيما يتعلق بتكوينه، فإننا لا نعلم أيضا أين تعلم. ونكتفي بالإشارة إلى أن المترجمين له، ذكروا من بين شيوخه، كبار علماء عصره في المغرب الأوسط، أمثال محمد بن مرزوق الحفيد، وأحمد بن زاغو، وقاسم بن سعيد العقباني، ممن كانت لهم "مشاركة في العلوم العقلية والنقلية" على حد تعبير كتاب التراجم. هذا ونستنتج من العدد الكبير من العلماء، الذين تتلمذوا عليه، وحضروا حلقات دروسه، أنه مارس التدريس كما ذكرنا منذ حين. ونذكر من بين هؤلاء التلاميذ، المتصوف الشهير أحمد زروق، ومحمد بن سعد مؤلف "النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب"، ومؤلف "روضة النسر في مناقب الأربعة المتأخرين"⁸.

وقد اشتغل الإمام التنسي أيضا بالإفتاء كباقي كبار العلماء. ومما يثبت اهتمامه بالافتاء، جوابه الطويل في "قضية يهود توات" التي سنعود للحديث عنها بعد حين، وقد نقل أيضا أحمد الونشريسي في "المعيار" عددا من فتاويه، زيادة على النازلة الخاصة بيهود توات. غير أن هذا لا يدل على أنه تولى منصبا رسميا للإفتاء، ويبدو أنه لم يتول منصب الخطابة أيضا، في مسجد من المساجد، على غرار عدد من العلماء والفقهاء في تلك العصور. وإننا نجعل كذلك تمام الجهل، طبيعة العلاقة التي كانت تربطه بمعاصره الملك الزياني محمد المتوكل، وبالقصر الملكي، مع أنه ذكر في مقدمة أهم كتبه، وهو "نظم الدر والعقيان..."، أنه أقدم على تأليف هذا "التصنيف الملوكي"، "لأن نعماء هذا الملك قد توالى عليه". ولا تتوفر لدينا معلومات عن طبيعة هذه النعماء.

* * *

وبعد هذه اللوحة الخاطفة عن حياة الحافظ التنسي، وقد لاحظنا كل ما يحيط بها من غموض، وبعد أن أشرنا إلى منزلته بين علماء عصره، بقي لنا أن نذكر آثاره.

لقد ذكر المترجمون له، تأليف من نوعين: كتب نعلم على وجه التحقيق أنه كتبها فعلا. وأخرى ذكرها المؤرخون وكتاب التراجم، أو ذكرها هو نفسه، ولكننا لا ندري إذا كان قد قام بتأليفها فعلا، أو لم يكتبها.

ذكر بعض مؤلفات الشيخ .

فنبداه بكتاب تحت عنوان :- إسلام أبي طالب - وقد انفرد السخاوي في الضوء اللامع لأهل القرن التاسع بذكره إذ قال: "وقيل أنه صنف في إسلام أبي طالب جزءا كما هو مذهب بعض الرافضة". و"الضوء اللامع" من كتب التراجم المشهورة، وهو خاص كما يدل عليه عنوانه بتراجم علماء الدين الذين عاشوا في القرن 9 هـ.

ثانيا: كتاب في معاصره السلطان الزياني محمد المتوكل. وقد أخبرنا عنه المؤرخ نفسه في ثانيا كتاب "نظم الدر". ومما قال: "لعل الله ينفس في العمر، فنصنف كتابا مفردا فيما يختص به، أعلى مقامه". ولم يأت ذكر هذا الكتاب في أي مصدر من المصادر. ويبدو أن التنسي لم ينجزه.

ثالثا: فهرسة. وهذا النوع من التأليف خاص بالحضارة العربية الإسلامية، فإن العلماء من السلف، قد اعتادوا تأليف هذا الصنف من الكتب، عندما تتقدم بهم السن، ويذكرون فيها على الخصوص شيوخهم، والعلماء الذي قابلوهم في حياتهم، والإجازات التي حصلوا عليها، والكتب التي تعلموا بها، والكتب والمصنفات التي استعملوها في الدروس التي ألقوها في حياتهم. ويعتبر هذا الصنف من المؤلفات، مصدرا مهما للبحث في الحياة الثقافية.

وفيما يتعلق بالكتب التي ألفها الحافظ التنسي بصورة أكيدة، نذكر على التوالي:

أولا الطراز في شرح ضبط الخراز، وقد اشرنا إليه سابقا. وهو شرح على مورد الظمان في رسم أحرف القرآن الذي هو أرجوزة نظمها محمد بن إبراهيم الشريشي المعروف بالخراز. وقد قام التنسي بشرح القسم الخاص بالضبط، و الضبط كما هو معروف، علم يهتم بالحركات، والمد، والشدة الخ... في كتابة المصاحف، خلافا للرسم الذي هو أيضا علم من علوم القرآن، غير أنه يخص تخطيط الحروف.

أما الكتاب الثاني فعنوانه: {راح الأرواح، فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وقيل فيه من الأمداح، وما يوافق ذلك على حسب الاقتراح}. ومع أن هذا الكتاب في حكم المفقود، يتوفر لدينا دليل قاطع، يثبت أن المؤلف قد صنفه بالفعل، وذلك لأن أحمد المقرئ لم يكتف بذكره في "نفح الطيب" وفي "أزهار الرياض"، بل نقل فقرة منه في كلا الكتابين، وهي خاصة بوصف الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في "المشور"، وهو اسم القصر الملكي لبني زيان في تلمسان. وأن محتوى الكتاب، كما يدل عليه عنوانه بكل

وضوح، هو جمع القصائد، التي قالها الملك الأديب أبو حمو موسى الثاني، من أسرة بني عبد الواد الذي تربع على عرش المغرب الأوسط من سنة 760 هـ إلى سنة 791 هـ (1389/1359م). كما يضم الكتاب القصائد التي مدح بها هذا الملك، بعض معاصريه من شعراء تلمسان. وقد اشتهر من بينهم محمد بن يوسف القيسي الثغري، ومحمد بن أبي جمعة الشهير بالتالسي⁹.

وأما الجواب في قضية يهود توات، المعروفة في ذلكم الوقت¹⁰، فإن أصل المشكلة التي طرحت على الفقيه الحافظ التنسي، هو أن بعض المسلمين من "توات"، تلك الناحية المتواجدة على ضفاف نهر "الساورة" في وسط الصحراء الجزائرية، والتي تضم عددا من الواحات أو القصور كما يسميها سكان الجنوب، وأهمها في القديم واحة "تمنطيط"، وهي لا تزال موجودة إلى يومنا هذا، وقد تفوقت عليها في العصر الحاضر مدينة أدرار، وتمنطيط هي اليوم ضمن ولاية أدرار. قلت إن بعض المسلمين من توات، قد أنكروا على اليهود القاطنين في المنطقة، سلوكهم، ومخالفتهم للقوانين، وللترايب التي حددها لهم الفقهاء المسلمون، على مر العصور. وتفاقت الأزمة بعد أن شيد أولئك السكان من اليهود، كنيسة جديدة لهم في "تمنطيط". وقد أثار هذا الخبر نائرة المتشددين، الذين اعتبروا تشييد معبد جديد، مخالفة صريحة للشريعة التي تسمح للذميين بإصلاح معابدهم القديمة فقط، وتحظر عليهم بناء معابد جديدة، غير أن بعض العلماء المحليين، وعلى رأسهم قاضي المدينة، خالفوا أولئك المتشددين وقالوا: إن اليهود ذميون، لهم ما لأهل الذمة من الحقوق المنصوص عليها في كتب الفقه. وقد احتج كل فريق بأحاديث نبوية، وبأقوال السلف من الأئمة والفقهاء. غير أن كلا الفريقين لم يقو على فرض آرائه، وعلى استمالة عامة الناس إليه. وكان في مقدمة الناقمين على اليهود، العالم الكبير محمد بن عبد الكريم المغيلي. وقد اشتهر هذا الفقيه بنشاطه، وبحيويته في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وفي نشر تعاليم الإسلام ببلاد الزنوج، وقد خلف مؤلفات كثيرة في العلوم الدينية، واللغوية، وفي السياسة.

ولما حمى الوطيس بين الفريق المناصر لمحمد بن عبد الكريم المغيلي، والفريق المعارض له، واشتد الخلاف بين المسلمين، راسل كلا الفريقين أكبر علماء العصر في تلمسان، وفي فاس، وفي تونس، وكانت المدن الثلاث العواصم السياسية، والدينية، والثقافية للأجزاء الثلاثة من المغرب الإسلامي. قلت راسل الفريقان كبار علماء العصر، يستفتيائهم في القضية، وكان كل فريق يأمل تأييد موقفه ضد موقف الفريق الآخر، المتهم بمخالفة تعاليم الشريعة. ويبدو أن مآرب سياسية، ومصالح اقتصادية كانت وراء مواقف المتخاصمين. وقد كان صاحبنا الإمام التنسي في تعداد العلماء الأجلاء الذين قصدهم الفريقان. ومما لا شك فيه، أن تحاكم الفريقين بتوات إلى الحافظ التنسي، لدليل على رفعة مكانته في عيون معاصريه، كما قدمنا.

وذكر أحمد الونشريسي في المعيار، مختلف الفتاوى التي تلقاها الفريقان، وقد انقسم أصحاب الأجوبة من الفقهاء إلى مؤيدين للمغيلي، وإلى مخالفين لموقفه. وكان محمد التنسي من جملة من وافق المغيلي الموافقة الحاسمة، وأيد موقفه المناهض لليهود ولأنصارهم. ويقول المؤرخون: إنه فور وصول جواب الإمام التنسي لواجهة تمنطيط، حمل المغيلي وأنصاره من المتشددین السلاح، وانقضوا على كنائس اليهود، فهدموها.

وقد أورد الونشريسي جواب التنسي تحت العنوان التالي "نازلة يهود توات من قصور صحراء المغرب الأوسط"، وذلك في 16 صفحة من الطبعة التي قام بتحقيقها الباحث المغربي محمد حجي، وقامت بنشرها دار الغرب الإسلامي في بيروت. و مما لاشك فيه أن المفتي قد أبدى فيه، سعة اطلاعه في مجال العلوم الشرعية، وهذا ما لا يسعنا إنكاره، قلت إذا رجعنا إلى هذا الجواب، نجد أن الفقيه لم يزد على ذكر آراء من سبقه من الأئمة والفقهاء، وعلى نقل أقوالهم، غير أن التنسي، لم ينفرد بهذه الخاصية، إذ أن الظاهرة الكبرى للعلم في زمانه، - في فروع المعرفة كلها -، كانت تكاد تنحصر في التبعية، وتقليد من سبقهم من الأئمة والمفكرين والعلماء، لا في الاجتهاد والابتكار.

ونختم كلامنا عن التراث الفكري للحافظ التنسي بذكر أهم مؤلفاته، وهو: "نظم الدر والعقيان، في بيان شرف بني زيان، وذكر ملوكهم الأعيان، ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان". وهو الكتاب الذي يحتل المرتبة الأولى من بين آثاره، وذلك لأن هذا الكتاب هو أضخمها، وقد جاءت أكثر النسخ الخطية، في مجلدين كبيرين، ولأن المؤلف قد أظهر فيه، سعة معارفه الأدبية وقدرته على التصنيف في التاريخ، وتضلعه في اللغة والبيان. وقد أراد أن يؤلف هذا "الكتاب الملوكي" كما وصفه، لشكر ولي نعمته، معاصره السلطان محمد المتوكل، الذي تربع على عرش "المشور" في تلمسان من سنة 866 إلى سنة 875، وصنف له كتابا "يشتمل كما ذكر في المقدمة، على التعريف بنسبه، وسلفه الكريم، وبيان شرفه في الحديث والقديم، متبوعا بجملة صالحة من مناقب الملوك ومآثرهم..." ثم زاد المؤلف قائلا: "مكملا بالحكايات البارة، والوصايا النافعة، والمخاطبات الفائقة، والأشعار الرائقة، والنوادر المستغربة". وقد اشتمل "نظم الدر" على قسم تاريخي مستقل عن باقي الكتاب. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن التنسي قد اعتبر بني زيان الذين هم فخر، من قبائل زناتة، أشرافا من سلالة فاطمة الزهراء بنت النبي (ص)، وهذا تملقا منه للدولة.

أما القسم الأدبي، وهو أطول قسم في الكتاب، فإنه قام بتحقيقه محي الدين بوطالب، ونشر ضمن منشورات دحلب في الجزائر. ولا بد من الإشارة إلى أن ميزة هذا القسم الأدبي هي نفس الميزة التي وصف بها العقد الفريد لابن عبد ربه الذي قيل عنه "هذه بضاعتنا ردت إلينا". وبالفعل، فإن هذا القسم الأدبي من "نظم الدر"، يكاد يخلو من كل أدب مغربي نثره وشعره، فأكثره أدب مشرقى، وهذا خلافا للقسم

التاريخي الذي أدرج فيه المؤلف، عددا من القصائد الطويلة التي قالها بعض الملوك من بني عبد الواد أو بني زيان كما يسمون أيضا، وأخرى قالها بعض الشعراء، ومنها قصيدة طويلة للمؤلف نفسه. و بذلك قد أنقذ الحافظ التنسي، شطرا من أدب المغرب الأوسط. فلولا ذكره بعض القصائد في هذا الكتاب، لضاعت هذه القصائد مع ما ضاع وتلف، من تراثنا الأدبي المنظوم والمنثور.

إلا أن أكبر ميزة لقسم الكتاب المتعلق بتاريخ الدولة الزيانية، تكمن في كونه المصدر العربي الوحيد، لفترة من تاريخ هذه الدولة، تزيد على سبعين سنة، وذلك بدءا من سنة 764هـ/1363م التي انتهت فيها أخبار قسم كتاب "زهر البستان في دولة بني زيان" لمؤلف مجهول، الذي عثر عليه في مكتبة بريطانية، وبدءا أيضا من تاريخ توقف يحيى بن خلدون عن تدوين "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد"، وذلك في سنة 777هـ/1376م، وكذلك انطلاقا من انتهاء أخبار كتاب "العبر وديوان المبتدأ والخبر..." لعبد الرحمن بن خلدون عن الدولة الزيانية، وذلك حوالي سنة 796هـ/1393م. قلت عن كتاب التنسي هو المصدر الوحيد منذ تاريخ توقف هذه المصادر الثلاثة، إلى أن يختم مؤلف "نظم الدر والعقيان" أخباره سنة 868هـ/1464م. وفيما عدا "نظم الدر" لا يتوفر للمؤرخ، مصدر تاريخي عربي آخر شامل الأخبار، لدراسة تلك الفترة الطويلة نسبيا، من تاريخ دولة بني عبد الواد التي أسسها يغمراسان بن زيان في المغرب الأوسط، على أبقاض دولة الموحدين. وذلك رغم تأخر تلك الحقبة من التاريخ، ورغم قربها من العصر الحديث. هذا إذا استثنينا الإشارات، ورجال الأدب، كأحمد المقرئ في "نفح الطيب، وغصن الأندلس الرطيب..." وفي كتابه الآخر "أزهار الرياض في أخبار عياض"، والمعلومات القيمة التي يمكن استخراجها من مجاميع الفتاوى الفقهية التي لم تستغل حق الاستغلال إلى يومنا هذا، من طرف المؤرخين الجزائريين، لدراسة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية على الخصوص في ذلك العهد. وإذا استثنينا أيضا كتب بعض الرحالة كعبد الباسط بن خليل الذي خلف لنا "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم"، وهو الكتاب الذي دون فيه هذا الرحالة المصري، مشاهداته في المغرب الأوسط الذي زاره في النصف الثاني من القرن التاسع، على عهد السلطان المتوكل معاصر التنسي. ويزيد شعور الباحث الدارس لتاريخ بني زيان، بقيمة كتاب التنسي وأهميته، عندما يريد دراسة الفترة التاريخية التي تلي سنة 868هـ/1464م، وهي سنة انقطاع أخبار "نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان..."، فلا يجد مصدرا واحدا يضم كلاما مسترسلا عن تاريخ بني زيان، وتاريخ المغرب الأوسط.

وبالإضافة إلى المحاسن السابقة، نشير إلى أن هذا التاريخ المختصر لملوك بني زيان، يمتاز بالوضوح وحسن العرض، كما أن متنه جاء مقسما تقسيما منطقيا، زاد من جلالته، كما خلا هذا القسم من الكتاب، خلوا كاملا من الاستطرادات، وهو العيب الذي كانت تتسم به غالبية الكتب القديمة، الأدبية

والتاريخية منها على الخصوص، فكانت تفقد بهذه الاستطرادات، وحدة الموضوع، والاسترسال المنطقي للحديث. ومن مميزات "نظم الدر" وآثار التنسي على العموم، أسلوب الكتابة، فقد امتاز بالرصانة، وجودة التعبير والسبك. وهذا في عصر ساد فيه الأسلوب المنمق المسجوع، واتصفت فيه الكتابة عند معظم الكتاب بالتكلف، وبانعدام الحيوية انعداماً تاماً، مع أن التنسي قد استعمل أيضاً بين الحين والآخر، هذا الأسلوب السائد من جناس وسجع.¹¹

هذا هو الإمام الحافظ التنسي الفقيه، والأديب، والمؤرخ، وأما الحديث عن العظماء، فهو حديث شيق، وحتى لا يطول بنا الحديث فيغذو مملاً، أكتفي بهذه المعلومات عن هذه المفخرة من مفاخر الجزائر، التي لا تزال مغمورة، كغيرها من المفاخر، محاولاً بهذا الحديث المتواضع عن حياته، وعن تراثه الفكري، المساهمة في الجهود الجديدة بكل ثناء وبكل إعجاب، والتي تبذل لتنظيم هذه الأيام الدراسية في مخبر {الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها في المغرب العربي}، لنفض غبار الإهمال والنسيان، عن ثقافتنا، قديمها وحديثها.

وفي الختام أقول: إنما الرجل العظيم كتاب خالد، لم يضعه الدهر لجيل بعينه، ولا لشعب بعينه؛ وإنما وضعه للأجيال جميعاً، وللشعوب جميعاً، يعرف الناس أوله إذا عرفوا مولده ونشأته ولكنهم لا يعرفون له آخراً، إذا عرفوا موته، لأن الموت لا يختم حياة العظماء، إلا إذا كان للخلود ختام.

الهوامش

1 - العرف الطيب، في شرح ديوان أبي الطيب، للشيخ ناصيف اليازجي، دار بيروت ج2 ص 202.

2 - // 223

3 - // 372

4- تاريخ بني زيان، ملوك تلمسان، تحقيق: محمود بوعياض، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 18 وما بعدها.

- 5- المرجع نفسه ص 20 وما بعدها .
- 6- المرجع نفسه ص 9 وما بعدها .
- 7- // ص 18 وما بعدها .
- 8- // ص 17
- 9- // ص 164 وما بعدها ، وينظر كتاب : أبو موسى الزباني ، حياته وآثاره ، د/ عبد الحميد حاجيات ، ش ، و ، ن ، ت ، الجزائر 1982 ، ط 2 .
- 10- تاريخ بني زيان ، ملوك تلمسان ، ص 29 وما بعدها .
- 11- أبو موسى الزباني ، حياته وآثاره ص 71 وما بعدها .